جورج حبش: نموذج القائد الديمقراطي الوحدوي

بقلم: د. فيحاء عبد الهادي

«إن شعباً يعشق الحرية كشعبنا، عرف درب الوطن، وتعلّم كيف يصون أرضه ويموت كالأشجار لا يركع، لقادر على تحقيق الانتصار، طال الزمان أو قصر».

د. جورج حبش

حين يذكر القادة العظام عبر تاريخ فلسطين؛ يبرز اسم حكيم الثورة الفلسطينية: جورج حبش، وحين يجري الحديث عن أهمية ربط النظرية بالممارسة الكفاحية؛ يعلو صوت الحكيم: "لا حركة ثورية دون نظرية ثورية"، وحين يذكر تواضع المفكرين الثوريين؛ يذكر تواضع القائد التاريخي، وحين يقتتل الإخوة وتقصر قاماتهم؛ تطول قامته. وحين نفتقد شهداء الوطن ونبكيهم؛ نفتقدك ونبكيك أيها القائد المعلّم.

يا من قدّست الحياة، في اللحظة نفسها التي قدّست فيها الشهادة في سبيل الحياة:

"إن كان للحياة معنى، ففي الشهادة تكمن أعمق المعاني. وإذا كانت الحياة بحلوها ومرّها تستحق أن تعاش حتى الرمق الأخير، لأنها تأتي مرة واحدة وتذهب للأبد، فهذا يضفي عميق المعاني والدلالات على التضحية والشهادة، ويكسب الشهداء والذين يقدمون أرواحهم قرباناً للوطن كل القدسية والاحترام".

آمن د. جورج حبش بأن التاريخ لا يتكرر؛ بل يتطوّر، وأن التطوّر لا يتمّ إلاّ بوعي لطبيعة التطوّر، والتقاط لطبيعة اللحظة التاريخية؛ الأمر الذي جعله يؤسس "حركة القوميين العرب"، أواسط الخمسينيات، ويشكّل خلايا في الأردن، وليبيا، والسودان، واليمن بشطريه، وبعض بلدان الخليج العربي، والأمر الذي جعله يعتنق الاشتراكية العلمية، هادياً ومرشداً لتنظيم "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين"، عام ١٩٦٨م.

شكّل الكفاح المسلّح هاجساً رئيساً لدى "الحكيم"، منذ تأسيسه لحركة القوميين العرب، حتى تأسيس "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين". تطوّر الفكر والشعار، فمن: "دم حديد نار"، إلى "الفكر يوجّه السلاح"، مؤمناً أن الكفاح المسلّح هو أرقى أشكال النضال، في مواجهة العدو الصهيوني. متميّزاً عن غيره من القيادات السياسية، بربط القضية الفلسطينية ببعديها القومي والأممي.

عمل "الحكيم" مع الجماهير ومن أجلها، مؤمناً بدورها كصانعة لتاريخها: "إن الجماهير المنظمة والمعبأة هي وحدها صانعة التاريخ، وهي الأساس في معركة التحرير". "علينا أن نستند إلى قوة الشعب وطاقاته الكفاحية، وطريقنا إلى ذلك، تبدأ بالموقف الوطني الحازم، بتعبئة طاقات الشعب، والحفاظ على مكتسبات ثورته ومنظمته، وبشكل خاص في الحفاظ على وحدته الصلبة والراسخة".

أما حسّه النقدي، فقد تجلّى في ممارسة النقد والنقد الذاتي، ليس كمبدأ يتغنى به، أسوة بالكثير من القيادات السياسية؛ بل كمبدأ يترجم واقعاً، داخل الهيئات القيادية، وخارجها. وأكبر مثال على ذلك:

مراجعة أسلوب "خطف الطائرات"، ووقف العمل به، إثر النقاش المعمّق، الذي أثير في المؤتمر الوطني الثالث للجبهة، الذي انعقد في آذار ١٩٧٢، وصدر ضمن وثيقة "مهمات المرحلة الراهنة": "استنفدت هذه الوسائل أغراضها، وأدّت وظيفتها. قررنا وقف هذا النمط من العمليات".

لم يخش الحكيم انفضاض الجماهير عن تنظيم الجبهة، بسبب المراجعة النقدية؛ بل آمن بأن النقد هو سلاح ذاتي يقوّم المسيرة الثورية؛ الأمر الذي جعله يدعو إلى مراجعة التجربة الفلسطينية، عبر محطاتها العديدة: "كيفية تعاملنا مع هذه الساحة العربية أم تلك، مع الحركة الوطنية التي أهملناها كلياً، فهمنا للعمل الوطني والقومي، للعمل السياسي والدبلوماسي من جهة، والعمل العسكري من جهة أخرى، تجربتنا العسكرية، المظاهر الاستعراضية، مشكلاتنا التنظيمية، الصراع الفئوي، التمثيل النسبي، الهيمنة والتفرد، القيادة الجماعية الغائبة، المنظمات الشعبية المفرغة والمهمشة والملحقة، الجوانب المسلكية والأمراض المستعصية التي علقت بجسم الثورة، كل هذا فضلاً عن النهج السياسي أولاً، وعشرات العناوين التي تبدأ بالأرض المحتلة والمشكلات الجدية الناشئة هناك، وتمرّ بالشتات الفلسطيني، وتنتهي بالأوضاع الداخلية للمنظمة، كل هذا بحاجة إلى مراجعة وتمحيص وتقييم، نحن متحمسون له، مستعدون لتحمل مسؤولياتنا على هذا الصعيد، ونطالب الآخرين، وتحديداً القيادة صاحبة القرار على هذا الصعيد، لأن تمتلك الجرأة وتجري مثل هذه المراجعة، التي سنشاركها بها حتماً".

تهزّنا كلمات الحكيم الصادقة، عام ١٩٨٧م، التي ما زالت صالحة حتى اليوم، وتدعونا إلى مراجعة تجربة الثورة الفلسطينية، وتقييمها سلباً وإيجاباً، دون خشية أو وجل؛ استجابة لنضال شعبنا الطويل وتضحياته، وإخلاصاً لقادة ملكوا الرؤية الثاقبة، والحس النقدي، والنفس الكفاحي الطويل.

آمن "الحكيم" بأهمية التغيير الاجتماعي، الذي يستلزم حشد طاقات نصف المجتمع المعطلة: طاقات النساء، وربط بين تحرير الوطن وتحريرهن؛ الأمر الذي جعله حريصاً على تكريس وجود المرأة، ضمن هيئات الجبهة كافة، وطرح قضية المرأة بعمق، منذ مؤتمر الجبهة الأول، وإفساح المجال أمام النساء، كي يتبوّأن أعلى المراتب القيادية في التنظيم.

وحين تخلّى د. "جورج حبش"، عن موقعه القيادي داخل التنظيم، في المؤتمر السادس للجبهة، عام ٢٠٠٠؛ قدّم مثالاً مميزاً للقائد الذي ينتصر لقناعاته الديمقراطية، عبر تخليه عن أعلى موقع قيادي، دون أن يتخلى عن التنظيم. كما قدّم مثالاً للقائد الذي يعنى بالفكر ويعطيه الأولوية، عبر إصراره على التفرّغ للكتابة، وتأسيسه مركزاً للدراسات والأبحاث، يعنى بتوثيق التجارب الكفاحية الفلسطينية والعربية ودراستها.

أبا الميساء، نحن في أمسّ الحاجة للاسترشاد بدعوتكَ إلى الوحدة الوطنية، في هذه الفترة السياسية المظلمة من تاريخنا، وبدعوتكَ إلى بلورة خط سياسي واضح، والتفرقة بين تسوية تجهض ثورة شعبنا الفلسطيني، وتسوية وطنية تحمل لشعبنا الاستقلال الوطني، وتكفل له حقوقه المشروعة غير القابلة للتصرف، بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية.

أثّرت في تشكيل وعي مئات الآلاف، ممن عرفوك، وممن لم يعرفوك، ممن اتفقوا معك، أو اختلفوا معك، من عشاق الحرية. لم ترضَ أن تعيش في فلسطين، في ظل الاحتلال الإسرائيلي؛ لكنّ سيرتك الكفاحية، وإرثكَ الفكري، وسماتك الإنسانية المميزة، سوف تعيش خالدة، في ذاكرة شعبك وشعوب

■ بكلمات رثاء ممزوجة بالدموع، قالت ليلى خالد: "يوم حزين لنا وللأمة العربية وجميع أحرار العالم (...) يوم رحيل القائد الذي وهب حياته لوطنه وقضيته جورج حبش".

وتضيف "رحل لاجئا، ولم يزل يناضل لحق عودة كل اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم المغتصَب، وحتى النهاية لم ينفك يدعو لوحدة البيت الفلسطيني ونبذ الهرولة غير المدروسة إلى المفاوضات".

وتُعاهد خالد الراحل الحكيم بـ"المضي قُدما في مسيرة النضال والفكر التي خلفها وراءه، لأن الاستمرار على نهجه سيضمن للفلسطينيين ألا يضلوا الطريق".

■ ينعى المناضل الفلسطيني بهجت أبو غربية رفيقه في النضال جورج حبش، قائلا: "لقد عرفت المرحوم الحكيم منذ الخمسينيات، وناضلنا معا لسنوات طوال". ويضيف أبو غربية "كان للحكيم تاريخ نضالي عريض ومؤثر وفاعل، إذ استطاع إلى جانب نضاله لتحرير فلسطين تأسيس حركة القوميين العرب".

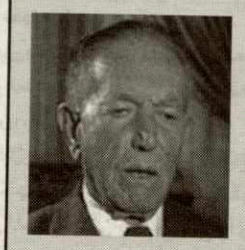

ويتمنى أبو غربية على الجبهة الشعبية "أن تتمسك بإرث الحكيم الراحل، وأن تبقى قابضة على جميع الثوابت الفلسطينية التي غرسها".

■ ويتحدث الأمين العام للجبهة الديموقراطية نايف حواتمة عن رفيق نضاله، قائلا "رحل الدكتور جورج حبش مناضلا فلسطينيا قوميا. رحل ولم تكتحل عيناه برؤية القدس عاصمة للدولة الفلسطينية الحرة".

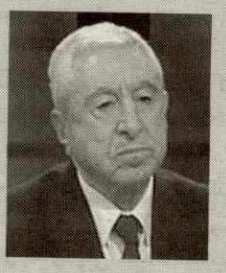

وعن ذكرياته معه، يقول "جمعنا معا النضال القومي والوطني، فعملنا على تطوير النضال بعد أن تعلمنا من تجربة النكبة العربية الكبرى في ١٩٤٨ وما جرته علينا من وبال، فحاولنا توأمة التوجه القومي مع الوطني وطورناهما ليخدما مجموع الحركة الوطنية الفلسطينية".

ويعقب حواتمة "جمعتنا أيام النضال بحلوها ومرها، بنجاحاتها وإخفاقاتها. وإن كان كل رحيل حزين، فإنا نتمنى على الجبهة الشعبية الفلسطينية أن تمضي فيما أسسه الحكيم وحلم به طوال مسيرته".

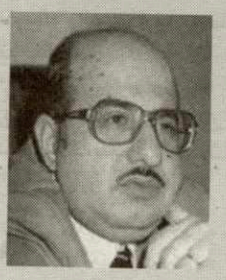

■ وبأسى بالغ يصف رئيس المجلس الوطني الفلسطيني سليم الزعنون الراحل الحكيم بـ"الرجل التاريخي العظيم"، مضيفا "لطالما كنا نتطلع إلى رأيه وصواب بصيرته في مجالسنا الوطنية وقضايانا كافة".

ويستذكر الزعنون "موقفا تاريخيا" للحكيم، قائلا "في أحد اجتماعاتنا الفلسطينية رفض الحكيم الاعتراف بأحد البنود، ولكنه لم يتعنت في رأيه بل قال: سأترك الحكم للأغلبية ولو أني أتوقع ألا يكون ذلك في مصلحتنا، وهو ما ثبت صحته فيما بعد ليسجل له هذا الموقف النبيل".

ويردف الزعنون "كلنا تثقفنا من نشرات الثأر التي كان يخطها الحكيم بيراعه في مصر عام ١٩٥٢، لقد كان حكيما ومثقفا بكل ما للكلمة من معنى".

وبملامح الفجيعة والوجوم التي ترتسم على وجوه المتواجدين الشبان في الحزب، تقول سلوى البرغوثي (٢٢ عاما) إن غياب جورج حبش هو "غياب الأب والقائد"، مضيفة "كنت أعوده في المستشفى كل يوم، وحينما توقف نبضه عن الحياة أطللت عليه، فكان بذات الهيبة التي وعينا عليها في صوره. عاش بطلا ومات بطلا".